المواطن، مأمون عتيلي الذي يغطي منطقة شمال الضفة الغربية، إن التدفق القليل للمعلومات من الجانب الرسمي، ساهم في خلق إشكال كبير في الشارع الفلسطيني، كالحال تماماً في موقفنا من قضايا كبيرة، كمسألة تصاريح التنقل بين مدن الضفة التي تصدرها سلطات الاحتلال، أو التصاريح للسكان في المناطق المعزولة، إذ تجابه برفض مطلق في البداية، ثم نتعاطى معها بالتدريج، وحتى أعضاء المجلس التشريعي ووزراء تداولوها لاحقا.

ويعتقد أن الحل لإشكالية كهذه يستدعي اتخاذ قرار يكون بالإمكان الصمود عليه دون أي تراجع.

وحسب عتيلي، فإن الهيئة نظمت لقاءً مفتوحاً في طولكرم، ناقش أبعاد الجدار والدور الرسمي في التصدي له، شارك فيه وزير الزراعة السابق، الذي أكد أن إمكانات المواجهة محدودة، وتتلخص في الصمود ودعم الأهالي. وتحضر الهيئة لشيء مماثل في جنين.

حضور أجنبي واستحياء رسمي

في التاسع من تشرين الثاني الماضي، حاول

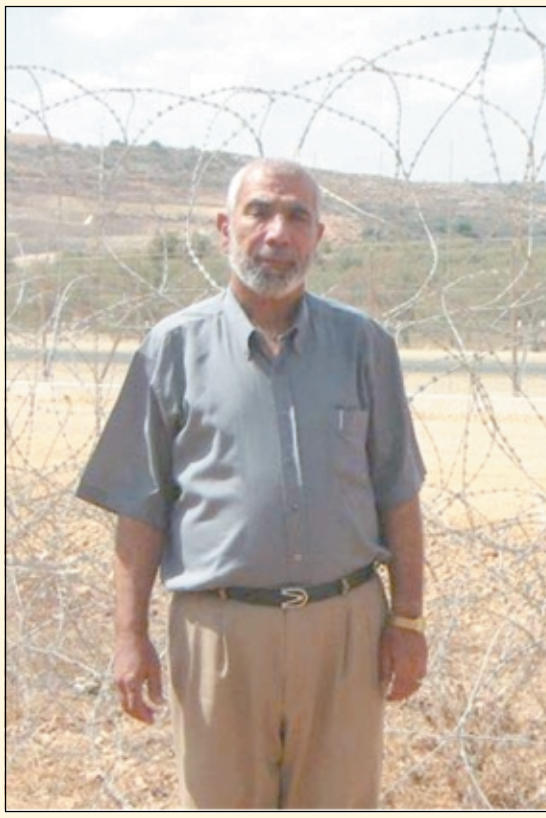

فلسطينيون وأجانب وإسرائيليون العمل معاً ضد الجدار، في اليوم ذاته الذي تهاوى فيه جدار برلين العام ١٩٨٩.

كانت قرية زبوبا مسرحاً للنشاط المركزي في شمال الضفة الغربية، ففي ساحة القرية أخذ عشرات الأجانب والإسرائيليون يشحذون هممهم. بجلاء، يرى الناظر أدوات لقص الأسلاك الشائكة، وحبالاً ومعاول، وتفاصيل صغيرة أخرى، واتجه هؤلاء نحو شرق القرية.

رونين إدلمن، الإسرائيلي الرافض للخدمة العسكرية، قادم من يافا، وليس«جافا»، كما قال، ويوني إبن التاسعة عشرة يلف جسده بعبارة: الجدار ليس حلاً قادم من كفار سابا، وإيليه الناشطة ضد الجدار تلف رقبتها بكوفية فلسطينية ?..

ثلاثتهم وغيرهم شاركوا في تأسيس تجمع أطلقوا عليه اسم »جماعة مسحة« نسبة للقرية الواقعة في محافظة سلفيت والمقابلة لمستعمرتي »عتس إفرايم« و«ألكانا«، التي سرق الجدار كل أحلامها ?.

هاني عامر الذي مر جدار الموت بينه وبين أرضه ذات الـ ١٠٠ دونم، وتسلم قراراً بالمصادرة وأمراً بإخلاء بيته، لقاء تعويض مالي أو بناء بيت آخر، أو وضع سياج حوله ببوابة صغيرة لا تفتح غير مرتين، ولا تسمح لغيره وأفراد عائلته بالدخول أو الخروج منها، وعقب رفضه هددوه بأنهم سيوجهون له تهمة إطلاق النار، وسيكلفون أحد مستوطني »إلكانا« بإطلاق النار، ومن ثم سيلصقون التهمة به. على إثر ذلك، قام إسرائيليون مناهضون للجدار بالتنسيق مع فلسطينيين، كرونين ويوني وإيليه بنصب خيمة بجانب البيت، واستقروا بها بشكل دائم تضامناً مع القرية، ولمنع هدم منزل هاني والتضامن مع سكان مسحة.

«جماعة مسحة»، عملوا في زبوبا أيضاً، وأحدثوا ثغرة بطول نحو ٧٠ متراً من الجدار، اشتبكوا مع جنود الاحتلال، وتحاوروا معهم بالصراخ: لماذا لا ترفضوا الخدمة العسكرية مثلنا؟ عودوا إلى بيوتكم وأطفالكم؟ لا تطلقوا النار على الفلسطينيين فهم ليسوا أعداء، ونحن الآن معهم؟ يكتفي الجنود بإطلاق النار في الهواء، والغاز المدمع ?

الرئيس بوش هو الذي ساهم في بناء الجدار!!

تروي الناشطة الأمريكية كاي بوند، ابنة ولاية ميتشيغان، والقادمة مع زوجها وابنتها الكبرى: ندرك أن الرئيس بوش هو الذي ساهم في بناء الجدار، ولو عارضه لما تم، فالجدار غير مقبول أخلاقياً، ونحن هنا لقول: لا.

تستذكر زميلتها رشيل كوري التي قتلها جيش الاحتلال في غزة سحقاً بجرافاته، وتصرخ بسمفونية ودموع، مثلما تسترد ذكرياتها مع صديقها الصحافي الفلسطيني مازن دعنا، الذي قتله جنود بلدها في العراق ?.

نساء ضد الجدار

ترى الناشطة النسوية ميسون داود أن المؤسسات النسوية برمتها، لم تضع في جدول أعمالها أي نشاط مرتبط بمتابعة الجدار، لأن كل هذه المؤسسات تمول من الدول المانحة، وتنحصر في قضايا الجندر ومشاركة المرأة في الانتخابات وغيرها.

وتعتقد داود، الحاصلة على الماجستير في تمويل المؤسسات، ومدير مركز بلدية جنين التكنولوجي، أن المناهضة الفلسطينية لإنشاء الجدار، جاءت متأخرة جداً، وتتقاطع مع ما أوصلنا له الاحتلال لواقع مرير نبحث فيه عن لقمة العيش ونحيا مقهورين فقراء، وتتأثر من حقيقة التركيع الذي مارسته مؤسسات المجتمع ضد المرأة، ما جعلها سلبية، على الرغم من كونها المتضررة الأكبر منه، فهو الذي أصبح يمر من أمام كل مدرسة ويسرق الأرض والماء.

وتعتقد أن مشاركة النساء في فعاليات مناهضة الجدار تحولت »لرفاهية« في ظل الحصار والدم والثكل للأبناء، وتوزيع القلوب على القبور والحواجز وما وراء القضبان.

ترسم مدير جمعية تنمية المرأة الريفية في جنين، إيفا جرادات، مشهداً مختلفاً، إذ تقول إن جمعيتها المتفرعة من جمعية التنمية الزراعية، أشركت المرأة في فعاليات مناوئة للجدار، وصهرتها في نشاطات ميدانية كحملات قطاف الزيتون في المناطق المتضررة، واعتبار أن كل اللجان النسوية في قرى الجدار أعضاء في لجان مناهضته.

تضيف: حالياً ينحصر تنفيذ مشروع العمل مقابل الغذاء في ٣١ قرية متضررة، وهذا يشمل النساء أيضاً.

مثلما هو الحال الذي أفرزته تجربة »نساء ضد الجدار«، حيث بدأت مجموعات نسوية بالتحرك الميداني تعبيراً عن رفض الجدار ومناهضته كونها الخاسر الأكبر منه.

ترى شروق أو دارسة الجغرافيا أن التصريح الأخير للرئيس عرفات ? يوم تشرين الثاني ٢٠٠٣- لمناسبة ذكرى انهيار جدار برلين، بأن »الجدار الفاصل« صادر ٥٨٪ من أراضي الضفة الغربية مؤلم للغاية، ويستحق أن نوجه ٥٨٪ من عملنا وحديثنا ومشاريعنا له.

تستند إلى تأكيدات الخبير في شؤون الاستيطان خليل تفكجي، التي تظهر أن جدار الموت الشرقي، يعني عملياً ضم ٢٠٪ من مساحة الضفة الغربية، وتحولنا للعيش في ٨ كانتونات معزولة في المدن، فيما سيتم تجميع القرى في معازل ترتبط بالمدن ببوابات يسيطر عليها جيش الاحتلال، وسيتحول غور الأردن بأكمله إلى بقعة مسيطر عليها بـ ٢٥ مستعمرة، و٦ آلاف مستوطن، في الوقت الذي ستصبح فيه أريحا كانتوناً معزولاً تماماً ومحاطاً بالجدران الأسمنتية كحال قلقيلية.

إنهم يغتالون أحلامنا!

للأطفال أيضاً، حكاية مع الجدار، مثلما يقول إبراهيم قبها ١٤ عاماً، الذي يقطن وعائلته طورة الغربية، إذ سرق المحتلون ملعب القرية الذي كان يشغله الأطفال في ممارسة عشقهم لكرة القدم، وظلت طوال فترة طويلة خشبات المرمى صامدة خلف الجدار، على الرغم من أن الصدأ نال منها، ولم تنجُ مساحة اللهو الخاصة بأطفال قرية الطيبة شمال جنين، من السرقة، إذ قدر لها التحول لمنطقة حرام كما تقول رشا علي، التي تتذكر أيضاً روايات والدها وأخوتها حول إقدام المحتلين على نبش مقبرة عائلة أبو حلوق في قريتها، بدعوى مرور الجدار فيها.

تضيف: حتى الأموات تأثروا من الجدار وتعرضوا للتجريف، وليس بعيداً عن الطيبة عاش أهالي زبوبا حكاية اقتطاع تاريخهم، عندما سرق المحتلون آثار القرية الكنعانية.

يقول محمد جرادات: نهب الإسرائيليون ثلاثة مواقع ومجموعة من الكهوف المتوزعة على سهول القرية وجبالها، ونقلوها إليهم. وهدد الجدار حيوان القنفذ الصخري الذي فصل عن أنفاقه بفعل الجدار أيضاً.

والكلاب أيضا!

يروي رئيس اتحاد المزارعين، أحمد الزغل: حتى الكلاب تأثرت من إقامة الجدار، إذ أصبحت بأعداد كبيرة تتجمع على جانبيه، وتأخذ بالنباح، وكأنها رسالة لمحاولة عبور الأسلاك الشائكة، والتواصل على طريقتها!

يصف الناشط في جمعية التنمية الزراعية محمد جرادات: لو نظرت جمعيات الرفق بالحيوان بعين العطف للكلاب، لربما مارست الضغط على إسرائيل، لأننا وبمفهوم العالم والكلاب سيان! لماذا لم تتحرك صوفيا لورين للدفاع عن الكلاب والقنفذ كما يحلو لها أن تفعل في أماكن أخرى؟ يبدو أن التمييز يشمل حيواناتنا!!

وضعوا السرج على ظهره بدلاً من الحمار!!

أشارت شبكة المنظمات البيئة الفلسطينية، في إصدارها الأول »أوقفوا الجدار« إلى شهادة لراع فلسطيني من عتيل بمحافظة طولكرم، الذي يقول: في صباح يوم من حزيران الفائت، كنت متجها بصحبة أخي وابن خالي لرعي أغنامنا خلف الجدار، ولحظة مرورنا عبر البوابة القائمة عند قرية زيتا، قام جنود الاحتلال المتموضعين هناك، بإيقافنا، واستجوبونا، ثم سمحوا لمرافقي بالعبور، فيما احتجزت وحماري، وأخذ الجنود

بتوجيه الأوامر لي للقيام بأمور غير إنسانية، كنزع السرج عن الحمار ووضعه على ظهري، وأن أركب الحمار والسرج على ظهري، وأن أسير نصف كيلو عدة مرات ذهابا وإيابا، ثم أمروني تحت تهديد السلاح بدخول إحدى البيارات، وممارسة الجنس مع الحمار، ولم يتركوني إلا بعد فترة طويلة من الزمن، ولم يسمحوا لي بالذهاب إلا والسرج على ظهري!!!!

يتحدث أحمد عطا المهتم بشؤون الجدار أيضاً: عندما نشر صحافي إسرائيلي الخبر في »يديعوت أحرنوت« فصل من عمله في اليوم التالي.

وأخيراً .. نضال مخملي »سبع نجوم« ضد الجدار!!

يروي (أ. ع) أحد أعضاء هيئة محلية في تجمع نال الجدار منه: هناك في وطننا مفارقة من »العيار الثقيل« تتمثل في تسلل المتاجرة لكل قضايانا من قبل بعض أبناء جلدتنا، فبموازاة ما سيسببه الجدار من موت وتدمير لكل شيء، هناك من »يتبغدد ويتنعم باسمه«.

يضيف: أعرف وبأسماء محددة، يفرج عن بعضها، كيف بات السفر المسيطر على يوميات عضو في مؤسسة ما، إذ بات يعرف إيطاليا واليونان والسويد، وبدأت أوضاعه المعيشية بالتحسن، وأصبح هاتفه الخليوي لا يكف عن الرنين، وبات من »تجار الشنطة«.

يتابع: أستغرب كيف يجمع أمثال هؤلاء بين مشاعر الوطنية ومناهضة الجدار، فيما أيديهم وجيوبهم ليست نظيفة.

يختتم: لا يعني ذلك التعميم، فهناك نشطاء في جمعيات أهلية تدعم وتناضل، وتعتبر الجدار قضيتها الأولى.

نقفل ملفاتنا، ونحن في طريق العودة من طورة الغربية القريبة من يعبد غرب جنين، إذ طاردتنا الدهشة حينما رأينا عشرات الشبان والأطفال، ومعهم مركباتهم وبعض التفاصيل الصغيرة، ويتهافتون لمجمع نفايات يستخدمه مستوطنون لإلقاء قاذوراتهم، وانحصر عمل الشبان والأطفال في توجيه السائق المستوطن إلى المكان الملائم لهم كي يلتقطوا بعض ما يمكن الانتفاع فيه، ولم يخلُ المشهد من تنافس »عفن« ربما ?.. تسأل نفسك: كرامة هؤلاء بذمة من؟

ملاحظة: عذراً لكثرة استخدام علامات التعجب !!!!!!!!!!!!!! التي تملأ حياتنا!!